"رأي آخر"
"في الإعجاز العلمي للقرآن"

أولاً لا بدّ من افتراض حسن النيّة في كلّ من يحاول اجتذاب الناس إلى الدين مهما ظهر من مجافاة طريق الصّواب فقد قال الله تعالى عن أضلّ عباده: ﴿إنّهم اتّخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنّهم مهتدون﴾.
ولكن لا بدّ من إظهار انحراف عن منهج النبوّة حتى لا يغترّ الآخرون.
ومن أسوأ الأمثلة على ذلك: ربط كلام الله المعصوم بالنظريات الحديثة في الكون والحياة، وكلّها ظنيّة قابلة للتغيير والتبديل والإهمال.
يعيد بعض الباحثين بداية هذا الانحراف إلى ما يلي:
١) محاولة بعض المفسّرين الماضين سدّ الثغرات المتوهّمة في قصص الأنبياء بالتفاصيل المأخوذة من التوراة والإنجيل، غافلين عن حكمة اقتصارها في كتاب الله على مواطن العظة.
٢) الاحتجاج بشعر العرب على القرآن (بدلاً من الاحتجاج بالقرآن على اللغة)؛ كما احتجّ الأشاعرة على تأويل الاستواء بالاستيلاء: (قد استوى بشر على العراق)، وتأويل الكرسي بالعلم: (ولا يكرسئ علم الله مخلوق)؛ صرفاً للّفظ عن ظاهره.
٣) الاحتجاج بالرأي المخالف لمنهج السنّة في فهم الآية انتصاراً للمذهب: كما احتجّ الخوارج على ضلال عثمان وعلي رضي الله عنهما بقول الله تعالى: ﴿واتّقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة﴾ مؤكّدين رأيهم بحديث موضوع: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال لعثمان: "بك تفتح"، ولعلي: "أنت إمامها وزمامها وقائدها تمشي فيها مشي البعير".
وكما احتجّ الإمامية على حصر الولاية في علي رضي الله عنه (والأئمة من نسله) بقول الله تعالى: ﴿إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصّلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ وأنّها نزلت في علي رضي الله عنه إذ سأله سائل وهو راكع في صلاته، فأومأ إليه بخنصره فأخذ خاتمه منه.
ولعلّ أوّل من وقع في شَرَك الإعجاز العلمي في القرآن: الغزالي (ت ٥٠٥) في "إحيائه" إذ ادّعى أنّ القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم، بعدد كلماته مضاعفة أربع مرات بادّعاء أنّ لكل كلمة ظاهراً وباطناً وحدّاً ومطلعاً، وفي كتابه "جواهر القرآن" يخصّص الفصل الخامس لبيان اشتمال القرآن على جميع العلوم أو الفنون الدنيوية.
وكما فتح الباب للخلط بين التصوّف والإسلام، فتح الباب للخلط بين الفلسفة والفقه في نصوص الوحي، فجاء من بعده الرّازي (ت ٦٠٦) فزاد الطين بلّه.
ثم استفحل الأمر فجاء ابن أبي الفضل المرسي (ت ٦٥٥) فاستخرج الهندسة من قوله

تعالى: ﴿انطلقوا إلى ظلّ ذي ثلاث شعب﴾، والجبر والمقابلة من الحروف في أوائل السّور.

وفي هذا العصر الذي بهر أبصار المسلمين وبصائرهم بنظريّاته ومخترعاته، وإذا كان الكواكبي (ت ١٣٢٠) هو السّابق للابتداع في التفسير بمثل عزوه التصوير الفوتوغرافي إلى قول الله تعالى: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظلّ ولو شاء لجعله ساكناً﴾، فإن لواء الابتداع في هذا الأمر معقود للشيخ طنطاوي جوهري (ت ١٣٥٨)، ففي مؤلّفه: "الجواهر في تفسير القرآن" (٢٦ مجلداً) كثير من المضحكات المبكيات، منها: استخراج تحضير الأرواح من قول الله تعالى: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى﴾، وقوله تعالى: ﴿أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها...﴾، وقوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى...﴾ واستنبط من الآيات أن يكون محضّر الأرواح ذا قلب نقي خالص كالعزير وإبراهيم وموسى في الآيات المذكورة.

وبهرت لغة العصر سيّد قطب فوصف كلام الله "بالتّصوير الفنّي" و"التّصوير الرّباني" و"الموسيقى الحادة التقاسيم" و"الموسيقى المطمئنة المتموّجة". ومصطفى محمود تكلّم عن "عفونية الفاكهة" وعن "الشفرة والرّمز والألفاظ المطلسمة في القرآن"، وفي محاولة كلّ منهما (الأديب والطّبيب) تفسير القرآن ما يفوق ذلك افتئاتاً على اللّفظ والمعنى، وانحرافاً عن شرع الله ومنهاج خيار هذه الأمّة.

وإذا لم يقف ولاة أمر المسلمين في وجه هذا الهجوم الشّرس على تفسير كلام الله بغير علم ولا هدى، من قبل الأدباء والوعّاظ والوراقين وتجار الدين، فليس من المستبعد أن يحدث في الإسلام ما حدث في النّصرانيّة عندما أرادت الكنيسة أن تواكب ركب العصر العلمي فأدخلت في تفسير الأناجيل دراسات في الفلك والرّياضة والعلوم الطبيعية والفنون التطبيقيّة، ولما تغيّرت النّظريّات مع الزمن (كما يحدث دائماً في النّظريّات الظّنيّة) فقد الدين النّصراني احترام أكثر أهله. وقد رأينا اليوم انصراف الشباب المسلم عن تفاسير الأئمة في القرون الأولى (وهم أهل اللّغة التي نزل بها القرآن وأهل العلم الشّرعي المستنبط من الوحي) إذ أعشاهم البريق المؤقّت للتّفاسير العصرية عن التمييز بين الحقيقة والخيال.

وإعجاز القرآن عرفه المسلمون الأوائل القدوة في فصاحته وبلاغته وحججه البالغة وإخباره عن غيب لا يعلمه الأمّي أو الأمّة أو غيرهم. وبدعة الإعجاز العلمي للقرآن لا تعدو أن تكون إهانة للقرآن وإعلاء لنظريّات الملاحدين.

وصلى الله وسلم على محمد وآل محمد